الإسلام والحضارة
نظرة الإسلام إلى الإنسان

للدكتور محمد خلف الله أحمد

عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية

خصصنا فيما مضى من هذه السلسلة حلقة لبيان عناية الغربيين المعاصرين ـ فى أمريكا وأوربا ـ بدراسة الإسلام وثقافته والمعضلات التى تواجهها الأمم الإسلامية الحديثة .

ونريد أن نسير مع هذه الحلقة خطوة أخرى ، فنعرض نماذج من دراسات الباحثين الغربيين عن الإسلام وعن مشاهير علمائه ومصلحيه . وسنأخذ للنموذج الأول مقالا لعالم أمريكى عن « نظرة الإسلام للإنسان » وأثر تلك النظرة فى التفكير الاجتماعى والنظرة السياسية .

إن موضوع الإنسان — ومصيره ومكانه من الوجود — قد شغل أذهان المفكرين الغربيين لما له من صلة بنظرات السياسة والأخلاق ولما له من علاقة بفلسفات الحكم والاجتماع فى المعسكرات السياسية المختلفة .

ولهذا الموضوع مكان بارز فى التفكير الإسلامى ، وأسسه الأولى مستمدة من نصوص القرآن الكريم : فهى تقرر أن الإنسان مدين بوجوده لخالقه الذى أنشأه وصوره ، ونفخ فيه من روحه ، وفضله على سائر الكائنات . وهذا الكائن المفضل أبدعته يد القدرة من ماء وطين ، فهو من هذه الوجهة أرضى المادة والتكوين ، وهو بما نفخ الله فيه من روحه كائن يمت إلى السماء بسبب . وقد شرفه الله بأن جعله خليفة فى الأرض ، وأخضع له سائر المخلوقات ، وزوده بالعقل والإرادة ، وأعطاه القدرة على تكييف السلوك ، والحكم على الأشياء ، ومعرفة الخير والشر ، والنافع والضار ، وكل أولئك مقرر صريح فى نصوص القرآن .

على أن هناك ناحية من الإنسان حار فى أمرها المفكرون طوال العصور ، وهى مسألة حرية الفرد وإرادته بجانب القانون الإلهى ، وماجرى به القلم من قضاء وقدر . وقد أخذ علماء المسلمين بنصيبهم من بحث هذه الناحية ، ورجعوا فيها إلى نصوص

القرآن ، فوجدوها من جهة تؤكد سلطان الله المطلق ، وأنه لا يحدث فى ملكه إلا ما أراد ، وأن مشيئته الأزلية لابد نافذة ، وأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، ووجدوها من جهة أخرى تؤكد جانب الحرية والمسئولية فى الإنسان : فكل أمرىء مسئول أمام الله عن أفكاره وأعماله وأحكامه ، ولا تستقيم المسئولية إلا مع حرية الاختيار . ومعنى هذا أن الله يرشد الإنسان عن طريق الوحى والنبوات والفطرة السليمة إلى المبادىء الأخلاقية العامة المنبعثة عن الإرادة الإلهية ، وأن الإنسان بما أودع الله فيه من قوة فى استطاعته أن يختار بين أن يتقبل هدى الله أو أن يتحول عنه .

هذا ومن الأفكار الأساسية فى الإسلام فكرة المساواة الكاملة بين بنى البشر ، إذ هم جميعاً من خلق الله ، فلا يفضل إنسان إنسانا بشرف مولده أو نوع وظيفته ، أو جاهه فى قومه ، وليس فى الإسلام جماعة ممتازة . ولا أمم مختارة . والطريقة الوحيدة التى يمكن أن يتميز بها بعض هى كيفية استجابتهم لله ، وقبولهم لهدية ، وموقفهم من وحيه .

وهذه الفكرة تضمنتها أصول الإسلام وشعائره التى ترمى إلى أن يفقه الناس أنهم جميعاً سواسية أمام الله : فى الصلاة يقف العظيم والصغير متجاورين فى عبادة الله ، وفى الصوم يستشعر الناس غنيهم وفقيرهم الخضوع لله ، ويدركون قسوة الجوع ومرارة الحرمان ، وفى الحج يتجرد المسلمون إلا من لبوس من قطعة واحدة يشعر بالوحدة والمساواة ، ويقضى على التميز الطبقى والمالى اللذين يظهران عادة فيما يلبس الناس ، أما الزكاة فتبرز الإحساس بالمسئولية نحو خلق الله الذين تركتهم صروف الدنيا بلا ضمان .

وهناك من أصول التشريع الإسلامى أصل يمكن أن يكون له أثره فى إخماد النزعات الاستبدادية عند بعض الحكام والفقهاء ، ذلك هو مبدأ الإجماع الذى يعتبر مظهراً للإرادة العامة ، والذى يحمل فى طياته بذرة مهمة من بذور الديموقراطية .

هذه النواحى التى ذكرناها — إذن — تؤكد أهمية الفرد فى نظر الإسلام ، من حيث هو موجود يضىء بين جوانحه قبس من نور السماء ، ومن حيث هو كائن حر ذو إرادة وعقل واختيار ، ومن حيث هو ذات لها قيمتها وأهميتها التى لا تتوقف على مال أو منصب أو جاه .

وبجوار هذه الأهمية التى خلعها الإسلام على الفرد ، سار العرف الإسلامى على

تصور آخر يتعلق بالفرد فى الجماعة ، ويمنح الناس وسيلة للترابط وإحساساً بالاتحاد لا يوجدان أحياناً فى التصورات الغربية الحديثة للإنسان . ذلك هو ما يعرف عند المسلمين بدار الإسلام ، وهو يضفى على كل مسلم شعورا بالترابط الوجدانى مع كل مسلم آخر ، ويهب له إحساساً بالأمن . ذلك أنه يشعر بكونه فى داره أينما سار فى بقعة من تلك البقاع الشاسعة المتناثرة من الساحل الأطلنطى لإفريقيا إلى قلب المحيط الهادى ، حيثما كان الإسلام هو الدين السائد والثقافة الغالبة ، وهذا من شأنه أن يخلق — لو أحسن فهمه واستخدامه — روحا جماعية ، ووحدة بين شعوب لها أهميتها البالغة . ومن الملاحظ أن هذه الروح تظهر أقوى ما تظهر عندما يهدد العالم الإسلامى — أو أى قسم من أقسامه — مصدر غير إسلامى ، وإنها عرضة أن تنسى حين لا يهدد المجموع خطر وشيك من الخارج . ومع ذلك فهى قوة حقيقية يمكن أن تصبح عاملا له أثره فى حياة العالم الإسلامى كله .

هذه الآراء التى نذكرها هنا عن موقف الإسلام من الفرد ومن الجماعة الإنسانية تلخيص — نقلناه بتصرف — لما أورده العالم المسيحى الأمريكى الذى أشرنا إليه فى أول الحديث ، وقصدنا من إيراده أن يتنبه المسلمون — وأخص شبابهم — إلى مافى دينهم من سماحة وسمو ، وإلى مافى مبادئه من أصالة وعمق ، وأن يستمعوا لهذه الشهادة المنصفة للإسلام يسجلها عالم غير مسلم ، مستدلا عليها من نصوص القرآن ودراسات العلماء الماضين ، وهو يتابع موضوعه إلى العصر الحاضر ، فيحلل آراء بعض المحدثين من العلماء والمفكرين المسلمين ، من أمثال المصلح المصرى «محمد عبده» والفيلسوف الباكستانى « محمد إقبال » ، اللذين يتفقان فى أن كلا منهما يؤكد استقلال الارادة الإنسانية . ويبرز الباحث الأمريكى عناية الشيخ محمد عبده بأن يصحح ما درج عليه الغربيون من نسبة أى جمود أو تأخر فى البلاد الإسلامية إلى عقيدة المسلمين فى القضاء والقدر . صحيح أن العامة قد أصطبغ تفكيرهم بالتسليم القائم على الاعتقاد فى القضاء الإلهى ، ولكن مفكرى الإسلام من جميع الفرق يعتنقون مذهب حرية الفرد فى الاختيار .

ويقرر محمد عبده فى رسالة التوحيد أن الإنسان يدرك أعماله الاختيارية ، ويزن عواقبها بعقله ، وينسب إليها القيم عن طريق إرادته ، ويقوم بها بدافع فى نفسه ، عالماً أن هناك قوة — أعظم من نفسه — هو مسئول أمامها ، وأن هدى الله ميسور

لمن يجاهد فى سبيل الاهتداء إلى الحق والخير والصواب ، مصداقاً لقوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » وكما أن الناس تحكمهم فى حياتهم الاجتماعية قوانين خاصة ، كذلك تحكمهم فى كل مكان وزمان قوانين الله الخلقية ، والناس قادرون على إدراك هذه السنن الإلهية بالتدبر ، وعن طريق الوحى ، ولكنهم أحرار حين يعملون بها أو يخرجون عليها . والأمم تصل إلى الرفعة أو تقصر دونها حسب اختياراتها الأخلاقية الإرادية ، أوحسب الاتجاه الأخلاق العام لسياساتها الاجتماعية . وقد وهب الله الإنسان الحس والعقل ، وفى هذين الكفاية ليستكشف ما هو ضرورى للمحافظة على النفس ، وليميز الصواب عن الخطأ ، ووهب له العاطفة والشعور اللذين يدفعان إدراكه العقلى ، ووهب له الإرادة الحرة ليتصرف فيما يصل إليه عقله وتوجه إليه عاطفته .

ويصل الباحث من كل هذا التحليل إلى نتائج عامة أهمها أن الحضارة الإسلامية ذات أساس متين يمكنه من الإصلاح فى ميادين السياسة الإجتماعية ، فإن مافى نظام الإسلام الأساس من مساواة ومن ديموقرطية يبعث على ضروب من المشروعات ترمى إلى تخفيف الحرمان والضعف الذين تعانيها أى طائفة داخل الجماعة . وحيثما أنتج النظام الطبقى للمجتمع أقلية غنية وأغلبية فقيرة ، فإن المصلحين يستطيعون أن يعتمدوا على المبادىء الأخلاقية الأساسيه فى الإسلام فى الوصول إلى تشريع يكون من شأنه رفع مستوى المعيشة ومنح طبقات المجتمع كلها فرصا متكافئة فى التعليم وفى الدخل المناسب وفى التعبير الإجتماعى .

أما فى الميدان السياسى فإن العالم الإسلامى فى وضع يسمح له أن ينمى فلسفته الخاصة دون أن يدفعه التقليد الأعمى إلى اتباع نظريات سياسية واقتصادية تجاب إليه من هذا المعسكر أو ذاك : والأمم الإسلامية بما بينها من أواصر الوحدة والترابط تستطيع أن تكون فى طليعة المنتصرين لخلق نوع فاضل من المجتمع العالمى ، ومن العاملين على إيجاد مثل ذلك المجتمع الذى ينظمه ويسيطر عليه قانون دولى .